

مكانة الإنسان في عملية التجديد الحضاري للعالم الإسلامي عند مالك بن نبي

الدكتور/ موسى لحرش*

ملخص:

يتطرق هذا المقال إلى أطروحة «مالك بن نبي» المعرفية المتعلقة بالحضارة، لاسيما من جانب اهتمامها الأساسي والعميق بالإنسان في العالم الإسلامي، بصفته تكويننا شخصيا وواقعا اجتماعيا، مستقصية في ذلك علله ونقائصه، ومحللة أبعاد الظواهر والمشكلات الاجتماعية المحيطة به، ومقترحة في الوقت نفسه الحلول الممكنة والواقعية في إطار من الرؤى المستقبلية المتفائلة، والمركزة على الفعالية كقيمة أساسية في التغيير الاجتماعي الذي يسعى إليه المجتمع الإسلامي لتجديد بناءه الحضاري.

Abstract:

This paper focuses Malek Bennabi's thesis around the human being in the Muslim world. However, it is assumed that man has a basic cultural personality, its strengths and shortcomings, visualizing different phenomena and social problems; meanwhile, he tries to solve these problems in the long run, with more stress on efficiency as a social value to achieve social change in order to renew its cultural structure.

*أستاذ محاضر قسم علم الاجتماع كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة باجي مختار عنابة.

مقدمة:

يشكل التجديد الحضاري للعالم الإسلامي في الخطاب المعرفي الذي أنتجه المفكر العالمي المعاصر «مالك بن نبي»^(*) انشغالا بحثيا مركزيا، ومطلبا ملحا لتجاوز الواقع المجتمعي الصعب الذي يعيش فيه هذا العالم. وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أنه قد تم التأكيد في سياق هذا الخطاب بأن التاريخ ليس خاضعا لحتمية صارمة ولا لجبرية، وإنما هو مجال الإمكان والتجاوز وتحقق الإرادة الإنسانية القادرة على توجيه الأحداث والظروف.

في هذه المساهمة العلمية سنحاول - في حدود ما يسمح به المجال المتاح لها- التعرض بالتحليل والمناقشة إلى العنصر الأول من عناصر المعادلة الحضارية عند «مالك بن نبي» والمتمثل في الإنسان ومكانته الأساسية في عملية التجديد الحضاري للعالم الإسلامي، بحسب ما يتضح من مجمل تقديرات المعرفية والمنهجية في هذا السياق، وهذا ضمن رؤية شاملة، تحرص على أن تجد للأجزاء مكانها في الكل.

أولاً: السياق المعرفي العام لمكانة الإنسان في عملية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي:

يؤكد «مالك بن نبي» في طروحاته المعرفية المتعلقة بالحضارة بأن هذه الأخيرة هي، بالأساس، حركة بناء وليست عملا تكديسيا. فمشكلتها لا تحل، في نهاية الأمر، باستيراد منتجات متوفرة لدى مجتمعات أخرى - مع الاحتفاظ بالطبع هنا، بصواب فكرة الاستفادة الواعية من

المجتمعات الأخرى والتي تعد ضرورية لاستقامة التفاعل بين المجتمعات- ولكنها تتطلب حل ثلاث مشكلات جزئية على النحو التالي (1):

"1- مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامة مع سير التاريخ.

2- مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية

3- مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد".

فلكي نبني حضارة ما " يجب - كما يقول هذا المفكر- أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء هدفهم " (2).

فمنتوج حضاري كالمصباح - مثلا- يتركب - في نظره- من عمل الإنسان - الذي يوجد خلف العملية العلمية والصناعية التي يعد المصباح ثمرتها- والتراب (بمفهومه الواسع) في عناصره من موصل وعازل، والوقت الذي يبرز في جميع العمليات التكنولوجية والذي يساهم - بمعية العنصرين الأولين (الإنسان والتراب)- في إنتاج المصباح (3) (**).

وهكذا يمكن القول بأن المصباح هو:

منتوج حضاري = إنسان + تراب + وقت.

وكذلك عن غيره:

منتوج حضاري أول = إنسان + تراب + وقت.

" " ثان = " + " + " .

" " ثالث = " + " + " الخ ...

إلى ما هنالك من منتوجات، فإذا قمنا بعملية الجمع في عمود المنتوجات ثم في عمود العناصر نخلص إلى المعادلة الحضارية التالية:

الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت (4).

ولهذا فإنه حينما نحاول - حسب رأي «مالك بن نبي»- التخطيط لحضارة ما، فلا ينبغي علينا أن نفكر في منتجاتها وإنما في أشياء ثلاثة هي: الإنسان بالأساس، ثم التراب والوقت.

ثانياً: الإنسان وطبيعة مشكلته الحضارية في العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي:

من المهم الإشارة في هذا الصدد إلى أن المتأمل لعنصر «الإنسان» في ضوء النظرة الشمولية المتكاملة لمؤلفات «مالك بن نبي» يقف عند فكرة أساسية تتمثل في أن هذا الأخير (الإنسان) (***) هو- في نظره- منبع وأساس المشكلة الحضارية كلها، وأي تفكير في مشكلته هو في الأساس تفكير في مشكلة الحضارة (5).

غير أن مشكلة الإنسان (بالمفهوم العام) تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها ومعطياتها. فالإنسانية - كما يقول- " لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشكلات متنوعة تبعا لتنوع مراحل التطور الإنساني (التاريخ). فلا يمكن لنا أن نوازن في الوقت الحاضر بين إنسان أوروبا

المُسْتَعْمَر «Colonisateur» وإنسان العالم الإسلامي القابل للاستعمار

«Colonisable»

" (6) (****) لأن كليهما في طور تاريخي خاص به .

فمن بين مشكلات الفرد في المجتمع البلجيكي مثلا، أنه يعيش - في حياته- حالة عدم توازن اقتصادي ناجم عن عدم الملاءمة بين حاجاته وتيار الإنتاج الصناعي السريع، أي حالة «حركة» مضطربة لا يشعر بها مجتمع آخر لا يعيش في مجال هذا التيار، في حين يوجد - حسبه دائما- العكس في المجتمع الإسلامي. إذ المشكلة هنا ليست في «الحركة» وإنما في «الركود»؛ إنها مشكلة الفرد المنتمي إلى هذا المجتمع والذي عزف عن «الحركة» واستقال من وظيفته الأساسية، وظيفة السير في «ركب» التاريخ. " فالأمر في الحالة الأولى (إذا) يتعلق بحاجات غير مشبعة وحركية مضطربة، في حين يتعلق في الحالة الثانية بعادات راکدة وضعت الفرد في حالة توازن خامد وعدم حركية تامة " (7).

إن الأمر يتعلق بمشكلتين مختلفتين في أساسهما، فالبلجيكيون - دائما على سبيل المثال لا الحصر- هم في حاجة إلى مؤسسات، بينما المجتمع الإسلامي هو في حاجة إلى أفراد حركيين، فعالين، قادرين - عبر سيرهم في التاريخ- على تحقيق الشهود الحضاري، مستخدمين في ذلك التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى.

وفي هذا الصدد يلفت «مالك بن نبي» النظر إلى وجود صنفين من الأفراد، يمكن ملاحظتهما، على سبيل المثال، في مجتمع مستعمر كالمجتمع الجزائري (خلال فترة الاستعمار الفرنسي):

1 - فرد المدينة.

2 - فرد الفطرة (الطبيعة).

فالصنف الأول " هو الذي يقطن حيث توجد التجمعات السكانية الحضرية، ويكون إما عاطلا لا يعمل شيئا، وإما أنه يبيع بعض العقاقير والحاجات، وإما أنه (حاجب) في إدارة استعمارية، والبعض الآخر - القليل جدا- يعمل كمحام، قاض أو صيدلي " (8).

أما الصنف الثاني، فهو الذي يقطن البادية ويكون مترحلا بلا مواش وفلاحا بلا محراث ولا أرض (9). والفرق بين هذين الصنفين هو أن الفرد الذي يقطن في المدينة (الحضر) تتمثل فيه الندرة والقلّة في كل شيء، " فقد تغلّغت في نفسه دواعي الانحطاط ... فهو دائما في منتصف الطريق، في منتصف الفكرة، وفي منتصف تطور. لا يعرف كيف يصل إلى هدفه، إذ هو ليس نقطة الانطلاق في التاريخ كرجل الفطرة (الطبيعية) ولا نقطة النهاية كرجل الحضارة، بل هو نقطة التعليق في التطور، في التاريخ وفي الحضارة.

إنه الرجل النصف - في كل شيء- و الذي دخل ميدان فكرة هي الإصلاح، فمسخها (نصف فكرة) وأطلق عليها اسم (السياسة) لأنه لم

يكن مستعد إلا لنصف جهد، نصف اجتهد (تفكير) ونصف طريق " (10). يبرز ذلك جليا من خلال وضع هذا الأخير (الرجل النصف) للقضية الجزائرية مثلا (أثناء الاستعمار) في طريق نصف الحل، عندما شارك في المجلس المنصّف بين الأوروبيين المستعمرين والجزائريين. ذلك المجلس الذي فرضه الاستعمار كميدان لأنصاف المثقفين (11).

أما فرد الفطرة (الصنف الثاني) فهو - كما تمت الإشارة إليه من قبل- يقطن البادية ويكون إما فلاحا بلا محراث أو أرض أو مترحلا بلا مواش، من الأشياء بالعدم. إنه بوجه من الوجوه يعبر عن نقطة الانطلاق في التاريخ.

والصنفان من الأفراد ينبغي القيام بتعديل في أفكارهما والاتجاه نحوهما بالرعاية والتوعية ليصبحا قادرين على بناء الحضارة.

وهكذا، فقد أصبح من الضروري - في نظر المفكر «مالك بن نبي» - " أن نضع نصب أعيننا المشكلة بأكملها، وأن نأخذ - أولا وقبل كل شيء- في الاعتبار عنصرها الأساسي: الإنسان. ويلزمنا أولا هنا أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ " (12).

وفي هذا الصدد فهو يري بأن الإنسان - في الوقت الحالي- يؤثر في المجتمع بثلاثة مؤثرات: (13). أ- بفكره / ب- بعمله / ج - بماله

ومن الممكن قلب الصيغة، والقول بأن قضية الإنسان في المجتمع - الذي يعاني أزمة حركة ونمو على مستوى مختلف الخطوط التنموية (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية...) - منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث: أ- توجيه الثقافة.

ب- توجيه العمل.

ج- توجيه رأس المال.

ثالثا: توجيه الثقافة:

(1)- أساسيات في الحقل الدلالي للمصطلح عند مالك بن نبي: تتبني الإشارة في هذا الصدد إلى أن المقصود بـ «التوجيه» عند «مالك بن نبي» هو أنه يمثل " قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف"(14). إنه - بمعنى آخر- عملية منهجية ضرورية لـ"تجنب الإسراف في الجهود والوقت"(15).

ومن المهم في هذا السياق - حسب رأي «مالك بن نبي» دائما- التأكيد على ملاحظة منهجية أساسية وهي أن التوجيه في مجال الظواهر / المسائل الإنسانية يتطلب، من ناحية إبستمولوجية، تعريفها أولا. و«الثقافة» من بين هذه الظواهر / المسائل الإنسانية الأساسية التي تتطلب بالحاح تعريفا، بل تعريفين (16):

- **التعريف الأول:** يحددها في إطار الحالة الراهنة.

- **التعريف الثاني:** يحددها وفق النظرة إلى المستقبل.

فالجيل الذي نمثله اليوم، على سبيل المثال، يشكل - في نظره- حدا فاصلا بين عهدين: عهد التراجع الحضاري وعهد بداية الانطلاق في بناء الحضارة.

فهو بشروعه في بناء نهضته، يكون قد سجل نقطة «بداية لنهاية موت الضمير»، وفي الوقت نفسه نقطة انطلاق نحو يقظته. إنه - بعبارة أخرى- يكون قد سجل اللحظة الفارقة بين عهد الفوضى والجمود وعهد التنظيم والتركيب والتوجيه.

وحيثما يصل التاريخ الإنساني إلى مثل هذا المنعطف من دورة الحضارة فإنه، لا محالة، يكون قد أقدم على مرحلة تمثل نهاية عهد وبداية عهد آخر؛ أي على مرحلة وسط بين الماضي «الميت» والمستقبل الذي ينبغي أن يكون «حيا» (17).

وهكذا، فإنه عندما نكون بصدد الحديث عن النهضة نحتاج - من ناحية منهجية- إلى أن نتصورها من ناحيتين (18):

- الناحية الأولى: وهي تلك المتصلة بالماضي، أي بحصيلة

التدهور المجسم في عالم الأشخاص، الأفكار والأشياء.

-الناحية الثانية: وهي تلك المتصلة بـ (بذور) المصير وجذور المستقبل.

وهذا التمييز ضروري جدا، ولا يعد موضوعه ضربا من الترف الفكري تمارسه مجموعة معينة من أفراد المجتمع تعيش في رفاية.

ذلك لأنه يتعلق في جوهره بتكييف حالة مجتمع بأكمله وتقرير مصيره وفق سياسة اجتماعية سليمة.

وهذا لا يتسنى إلا بالشروع أولا بتصفية العادات، التقاليد، النظام الأخلاقي والاجتماعي مما في كل ذلك من عوامل «ميتة» أو «مميّنة» ورواسب لا فائدة منها، حتى يُفسح بذلك المجال للعوامل الأخرى الفعالة لتنشيط حياة المجتمع وتحريكه باتجاه الحضارة؛ نحو صناعة التاريخ (19).

على أن ما تنبغي الإشارة إليه في هذا الصدد، هو أن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، قادر على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة (20) (****).

والمراد بالفكر الجديد هنا هو تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي يراها «مالك بن نبي» ضرورية تماما للثقافة وهي:

- برنامج التوجيه في مجال الثقافة الأخلاقية

- الذوق الجمالي

- المنطق العملي بن نبي»- إلى مدرستين

- التوجيه الفني (Technique).

هذا وتجدر الإشارة أيضا إلى أن التحديد المزدوج للثقافة - في إطار الحالة الراهنة وحسب المصير (المستقبل)- لا يعتبر ذا أهمية أو أثر بالغ

إلا إذا زال ذلك الخلط الشائع بين مصطلح «الثقافة» ومصطلح «العلم». فمعظم التفسيرات التي قدمت بشأن «الثقافة» يمكن ردها - في نظر «مالك بن نبي» - إلى مدرستين (21):

- "المدرسة الغربية: التي ظلت وفيه لتقاليد عصر النهضة، وهي ترى عموما أن الثقافة ثمرة الفكر.

- المدرسة الماركسية: التي ترى أن الثقافة في جوهرها ثمرة المجتمع".

إن هذين الصنفين من التفسيرات يُعدان - من الوجهة التربوية- مشتملين على «فكرة عامة» عن الثقافة، دونما أي تحديد لمحتواها القابل لأن يدخله التعليم في سلوك الفرد ونمط الحياة في المجتمع.

وهذا ما يحاول «مالك بن نبي» أن يقوم به حينما يربط ربطا شديدا بين الثقافة والحضارة. إذ على ضوء هذا الربط " تصبح الثقافة - في مفهومه- نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يقاس الفرق الضروري بين الثقافة والعلم " (22).

ومن ثمة فالثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الفرد في المدارس ويطالعه في الكتب، أي بمعنى أنها ذات مضمون معرفي صرف، بحيث تصبح تساوي الناتج التعليمي أو التخصص في ميدان من ميادين المعرفة، وإنما هي جو عام من الأذواق والعادات والقيم التي تؤثر في تكوين

الشخصية وتحديد دوافع الفرد وانفعالاته وعلاقاته بالأفراد الآخرين وبالأشياء (23) (*****).

وحتى يتسنى فهم الفرق بين الثقافة والعلم بشكل أكثر، يورد «مالك بن نبي»- في هذا السياق- مثالين؛ المثال الأول يتعلق بفردين كلاهما يمارس وظيفة تختلف عن وظيفة الآخر، ولكنهما ينتميان إلى مجتمع واحد، كطبيب إنجليزي وراعٍ إنجليزي.

أما المثال الثاني فيتعلق بفردين كلاهما يمارس الوظيفة نفسها، ولكنهما لا ينتميان إلى مجتمع واحد، بل إلى مجتمعين مختلفين في درجة تقدمهما كطبيب صيني وطبيب إنجليزي. فالفردين الأولين تتميز سلوكاتهما إزاء مشكلات الحياة بتمائل معين في الرأي (*****) يتجلى فيه ما يسمى بـ (الثقافة الإنجليزية). أما الفردين الآخرين فتختلف سلوكاتهما أحيانا اختلافا كبيرا، بل عجيبا، ينم عن طابع الثقافة الذي يميز أحد هذين الفردين عن زميله، وذلك تبعا لطابع الثقافة الذي يميز المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الفرد عن المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد الآخر.

" هذا التماثل في السلوك في الحالة الأولى، والاختلاف في السلوك في (الحالة) الثانية، هما الملاحظتان المسلم بهما في المشكلة التي أمامنا، وعليه فالتماثل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن العلم " (24)، مما يدفع ذلك إلى التأكيد بأن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع، في

جوهره، إلى معطيات وأشياء أعم من المعرفة التي نتلقاها في المدرسة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة في منظور «مالك بن نبي».

ومما سبق، يمكن تعريف الثقافة بصورة عملية - حسب رأيه- على أنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كראسمال أولى في الوسط الذي ولد فيه" لتكون هكذا " المحيط الذي يشكل فيه (الفرد) طباعه وشخصيته " (25) (*****). وهي بتعريف أشمل تمثل " المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر " (26).

والجدير بالاستنتاج من هذا التعريف (العام) هو أنه يتضمن جانبين من الفلسفة: فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة " أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع، مع (الأخذ) بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعا في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها (الشحنة) الروحية، عندما يؤذن (ظهور / بروز) إحدى الحضارات" (27).

وبهذا المفهوم يتبدى جليا، الموقع المحوري للمسألة الثقافية في حركة البناء أو التجديد الحضاري. غير أنه، وبتتبع وجهة نظر «مالك بن نبي» في الثقافة، نجده يركز، في المقابل، على أنه لا سبيل لعودة الثقافة

إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تخليصها من الحشو أو الانحراف الذي يحدثه عدم فهمها على الوجه الصحيح.

والمقصود بالحشو هنا هو عدم تصفية عادات وحياة الأفراد بصفة عامة مما يشوبها من عوامل الانحطاط، مثلما هو الشأن بالنسبة «للجزائر» إبان الاحتلال الفرنسي، حيث لم تنتج - عموما - ثقافة النهضة بها، في البداية، سوى مثقفين حرفيين (أنصاف مثقفين) - عبر عنهم «مالك بن نبي» بصيغة «رجل القلة أو الرجل النصف» - منبثين في صفوف مجتمع أغلب أفراده أميين.

ف «رجل القلة» هذا، لم يكن ينظر إلى مشكلة النهضة إلا ضمن حدود تحقيق حاجات وطموحات شخصية، جعلت من مفهوم الثقافة عنده هو أنها عبارة عن طريقة فقط، ليصبح شخصية بارزة (في البرلمان الفرنسي مثلا)، وإن زاد فعلم يجلب رزقا.

إن هذا التحريف لمفهوم الثقافة تتجسد نتيجته في ذات - ما يسميه مالك بن نبي - ب «المتعالم أو المتعائل أو بالأحرى مدعي الثقافة، الفهم والتعقل» L'intellectomane⁽²⁸⁾.

وظاهرة التعالم - أو الحرفية في التعليم - ك «مرض اجتماعي» يصيب المجتمع، لا تقل خطورة عن ظاهرة «الجهل المطلق»، بل إنها لتزيد عنها خطورة، لأن «الجهل» يمكن علاجه (نسبيا) بسهولة، أما «التعالم» فعلاجه أصعب بكثير.

ولتقريب الصورة أكثر يسوق «مالك بن نبي» المثال التالي فيقول: " إن كلام هذا المتعالم ليس كـ (تهتهة) الصبي فيها (صبيانية) وبراءة، فهو ليس متدرجا في طريق التعلم كالصبي، وإنما (تهتهة) تتمثل فيها شيخوخة وداء عضال، فهو الصبي المزمّن " (29)؛ الذي ينبغي أن يزاح من طريق الحضارة ليفسح بذلك المجال للطالب العاقل الجاد، كيفما كان وضعه الاجتماعي، لأن الثقافة لا تخص طبقة دون أخرى وإنما تخص المجتمع كله.

وبهذا الفهم يصنع - تدريجيا- التاريخ، الذي لا يمكن أن نتصوره - حسب رأي «مالك بن نبي»- بلا ثقافة، لأن المجتمع الذي فقد ثقافته، يكون قد فقد حتما تاريخه. فالثقافة، في النهاية، هي " الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع المتحضر(المجتمع التاريخي)، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع (منذ البداية) لنفسه، بمن في ذلك الحداد، الفنان، الراعي، العالم والإمام وهكذا يتركب التاريخ " (30). وتغدو الثقافة - من هذه الزاوية- عاملا حضاريا تاريخيا، بل وأيضا نظاما تربويا تطبيقيا (***** (31) ينشر بين جميع (شرائح) المجتمع ويوحد بينها على ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي (العالم وراعي الغنم ...) (*****).

(2)- العناصر الجوهرية في عملية التوجيه الثقافي للمجتمع عند مالك بن نبي:

يمكن القول في هذا السياق بأن هذا النظام أو البرنامج التربوي السابق ذكره والذي يتخذ المجتمع «دستورا» لحياته الثقافية يتألف من عناصر أربعة - يراها «مالك بن نبي»- مهمة جدا لجمع شروط «الفعالية» التي هي النقطة الأساسية التي من خلالها يمكن الوقوف على مكانة «الثقافة» في المجتمع ونجاح أية سياسة اجتماعية تنشد التجديد الحضاري. وهذه العناصر هي كالتالي (32):

- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية
- وتحديد السلوك الجماعي داخل المجتمع.
- والتوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام
- والمنطق العملي
- والتوجيه الفني المتلائم مع حاجات ومتطلبات كل مجتمع.

أ)- التوجيه الأخلاقي:

ينبغي التأكيد، في بداية تحليل هذا العنصر، على ملاحظة معرفية ومنهجية تتمثل في أن الاهتمام بعنصر «الأخلاق» لا تتم مقارنته هنا من زاوية فلسفية وإنما من زاوية اجتماعية تتحدد، على وجه الدقة، في «قوة التماسك» الضرورية للأفراد، في مجتمع يطمح إلى تكوين وحدة اجتماعية تاريخية حضارية .

ومن المعلوم في هذا الصدد أن «قوة التماسك» هذه مرتبطة، في أصلها، بغريزة - طالما تحدث عنها مفكرون عديدون (أرسطو،

مونتسكيو، ابن خلدون...) واستخدمتها القبائل الموغلة في البداوة- هي غريزة «الحياة في جماعة» عند الفرد، والتي تدفعه لتشكيل القبيلة، العشيرة، المدينة والأمة.

غير أنه من المهم الإشارة في هذا السياق إلى أن المجتمع الذي يتجمع أفراداه لتكوين حضارة ما، هو بدوره يستخدم الغريزة نفسها، ولكنه يزيد عليها بتهذيبها وتوظيفها بروح خلقية سامية (33). ومصدر هذه الروح الخلقية -حسب رأي «مالك بن نبي»- الأديان، ووظيفتها الاجتماعية هي ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، كما تشير إلى ذلك الآية القرآنية الكريمة التالية:

" وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم " (34).

إن ما يشد الانتباه في هذا السياق - حسب رأي «مالك بن نبي» دائما- هو ذلك الاتفاق في المغزى والدلالة بين ما تذهب إليه هذه الآية الكريمة وبين معنى كلمة «دين» في أصلها اللاتيني وهو (الربط والجمع) (35).

ويكون من الخطأ - حسب رأيه أيضا، ونحن نتحدث عن قوة التماسك الاجتماعي المهذبة والموظفة بروح خلقية مصدرها الأديان- أن نؤسس نظرتنا إلى «المدنية الغربية» على غلط منطقي - وقع فيه البعض ممن يُنتسبون إلى العالم غير المتقدم- يتمثل في النظر إليها (المدنية الغربية)، وكأن تاريخها قد ابتدأ من يوم أن ألفتنا أنظارنا إليها، فنعيرها

بذلك اهتمامنا في صورته الطارئة، المجتزأة والسطحية، وليس في صورته المتأنية والمعمقة.

وفي هذا الصدد يقول «مالك بن نبي»، لو أننا " تناولنا بالدراسة مشروعا اجتماعيا، كجمعية حضانة الأطفال في فرنسا على سبيل المثال، لبدا لنا من أول نظرة في صورة جمعية تقوم على شؤونها دولة مدنية (لا دينية) ! في حين لو درسنا تاريخها، ورجعنا إلى أصول فكرتها الأولى، لوجدناها ذات أصل مسيحي، فهي تدين بالفضل إلى القديس (فانسان دي بول) الذي أنشأ مشروع الأطفال المشردين، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر" (36).

فالتاريخ إذا يتطور وتتطور معه مظاهر الشيء الواحد الذي يدخل في نطاقه. ويغدو الأساس الخلقي عاملا مهما في ذلك. إذ لا يصح مثلا أن ننظر إلى منتجات المدنية الغربية " وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة (كانت) الأساس الخلقي الذي قام عليه (صرح) المدنية الغربية في علومه وفنونه...؛ فلو تناولنا (المذيع) مثلا لرأينا فيه مجهودات علمية وفنية مختلفة دون أن يخطر ببالنا أثر القيم المسيحية في بنائه، بينما هو في الواقع أثر من أثار تلك العلاقات الاجتماعية التي وحدت جهودا مختلفة لـ(هرتز Hertz) الألماني، و(بوبوف POPOV) الروسي، و(برانلي BRANLY) الفرنسي،

و(ماركوني MARCONI) الإيطالي، و(فليمنج FLEMING) (الأمريكي، فكان (المذيع) نتيجة هذه الجهود جميعا " (37)، الموحدة بفضل علاقات خاصة ليست، في أصلها، سوى الرابطة المسيحية التي أنتجت المدنية الغربية.

والإسلام بدوره، يحمل - في نظر «مالك بن نبي»- هذه الحقيقة المتمثلة في «الروح الخلقية». ويظهر ذلك جليا من خلال خلقه من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي. إن هذا الخلق يبين بوضوح أن «قوة التماسك الضرورية» للمجتمع الإسلامي موجودة فعلا في «الإسلام» ولكن أي إسلام (في نظر مالك بن نبي) ؟.

إنه الإسلام المتحرك في عقول وسلوكات الأفراد والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي (38)؛ الإسلام الذي يعيش في إطاره المسلم مع الله سبحانه وتعالى عقلا في عقله وحبا في قلبه وحركة في حياته.ضمن السياق نفسه يؤكد «مالك بن نبي» أيضا بأن المبدأ الأخلاقي (بصفة عامة) " يقوم بالضبط ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور، بدونه عالم الأشياء، ولا عالم المفاهيم. ومن هنا كانت أهميته الكبرى في تحديد الثقافة في مجتمع ما، وفي توضيح (الفرق) الجوهرية بين الثقافة التي تتضمن كشرط أولي تحديد الصلات بين الأفراد وبين العلم الذي لا يهتم إلا بالصلوات الخاصة بالمفاهيم والأشياء " (39) (*****).

(ب) - التوجيه الجمالي:

يعتبر المبدأ الجمالي أساس ثاني هام تقوم عليه الثقافة، فهو الذي " يضيف على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام من حيث الألوان والأشكال " (40). بمعنى آخر أن الأفكار التي يتضمنها - والتي تمثل المنوال الذي تنسج عنه الأعمال- تتولد من الصور المحسوسة الموجودة في الإطار (المحيط) الاجتماعي (*****)، والتي تنعكس بشكل أو بآخر، في نفسية من يعيش فيه. وهذا بالضبط ما قصده «مالك بن نبي» عندما قال أن " الجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره، ويطبّعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل (*****) أو السماجة المستهجنة" (41).

يظهر هذا حتى في أبسط معاني الجمال؛ في شكل اللباس الذي يرتديه الإنسان، في الحقيبة التي يحمل فيها ملابسه عند السفر، في المسحة التي تكون عليها الشوارع والبيوت والمقاهي ... (42).

إن كل هذا ينم عن أن المبدأ الجمالي يشكل أساسا هاما في ثقافة المجتمع، " فإذا كان المبدأ الأخلاقي - حسب رأي «مالك بن نبي»- يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والاتجاهات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته، وهنا وجه آخر للفرق بين العلم والثقافة. (إذ

الأول تنتهي عملياته عند إنشاء الأشياء وفهمها، بينما الثانية تستمر في تجميل الأشياء وتحسينها. " (43).

غير أن ما تنبغي الإشارة إليه في هذا السياق - وإلى جانب كل ما تقدم- هو أن النموذج الذي يكون عليه المجتمع؛ أي مجتمع، يتأثر إلى حد كبير بنتيجة العلاقة القائمة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي، والتي تأتي أولا (نتيجة العلاقة) في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في (سلم) القيم الثقافية في المجتمع.

ويمكن القول في هذا الصدد بأنه هناك - بصورة عامة- نموذجين من المجتمعات: الأول يقوم فيه النشاط أساسا على المنازع والدوافع الجمالية، والثاني يقوم فيه النشاط أساسا على المنازع والدوافع الأخلاقية.

إن هذا الاختلاف في ترتيب عناصر الثقافة ليس مجرد اختلاف شكلي، لأن هذين النموذجين من المجتمعات لا يتطوران في الأصل، في اتجاه واحد.

فالمجتمع الغربي، على سبيل المثال، كان قد مارس من بين فنونه، فن التصوير، وتصوير المرأة العارية بخاصة بسبب الدافع الجمالي، بينما الفن الإسلامي الأصيل لم يخلف أثارا في التصوير تصب في هذا الاتجاه، أو بالأحرى في هذا النوع من الصور، لأن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يسمح للفنان بأن يعبر عن كل أنواع "الجمال"،

وعلى الخصوص إذا تعلق الأمر بإنجاز صور تجسد المرأة وهي عارية.

والشيء نفسه أيضا بالنسبة لتطور الملابس في المجتمع الغربي، والذي انطلق من فكرة أساسية، وهي محاولة إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهره (مظهر الجمال)، بينما لم يتخذ تطور الملابس في المجتمع الإسلامي هذا المنحى أو هذا الاتجاه، بل اتخذ اتجاهها مخالفا تماما له إذ هدف أساسا من خلال وسائل معينة (كملاية اللف في الجزائر وغيرها من الوسائل المتنوعة في ظاهرها والمتوحدة في بعدها الأخلاقي الإسلامي عبر مختلف دول العالم الإسلامي) أن يخفي جمال المرأة في الشارع (*****).

إن هذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية تفتقد لعنصر الجمال أولا تثمنه، وإنما تضعه في مكان آخر من سلم القيم (44).

هذا ويمكن الوقوف أيضا على نتيجة هذه العلاقة القائمة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي- والتي تأتي أولا في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال- من خلال دراسة الاستعمار كظاهرة ثقافية تدل على " أن الثقافة الغربية حددت علاقة (مبدأ أخلاقي - ذوق جمالي) بصفة معينة، وذلك بأن قدمت العنصر الثاني على الأول

في ترتيب القيم، فأثر هذا الترتيب في علاقة الإنسان الأوروبي بالإنسانية.

فكل ثقافة سيطرة هي في أساسها ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية التظاهرية (الاستعراضية) على حساب القيم الأخلاقية " (45).

ويمكن تتبع وملاحظة الأثر الكبير الذي يتركه مفعول علاقة (مبدأ أخلاقي- ذوق جمالي) في مجالات أخرى مثل ما يتعلق باتجاه الأدب بصفة عامة، بحيث تُحدد هذه العلاقة في هذا المجال، بنزعة يطلق عليها - في المجتمعات التي تعطي الأولوية لذوق الجمال- بـ «الفن للفن»، كما تحدد من ناحية أخرى بنزعة يطلق عليها- في المجتمعات التي تقدم الأخلاق بصورة ما على الجمال - بـ «الأدب الملتزم» (46).

إن هذا الترتيب الخاص الذي يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي ينتهي أيضا، في نظر «مالك بن نبي»، إلى " تحديد مناهج سياسية مختلفة تمام الاختلاف. فبينما ينزع منهج إلى تأسيس ديمقراطية تجعل حرية الفرد هدفها، وذلك بدافع جمالي، إذا بالأخرى تنهج إلى ديمقراطية تستهدف سعادة المجتمع وذلك بدافع أخلاقي " (47).

وهكذا فإنه حينما يتعلق الأمر بمعالجة مشكلة توجيه الثقافة في المجتمع، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار مثل هذه المسائل، لأن أي خلل يحدث في هذه العلاقة (مبدأ أخلاقي- ذوق جمالي) يؤدي في النهاية، إلى حدوث خلل في توازن الحضارة وتجدها.

(ج) - المنطق العملي :

يشكل هذا المبدأ أساسا ثالثا هاما تقوم عليه ثقافة المجتمع، فهو مبدأ يخص المحصول الاجتماعي، يخص الفعالية الفردية والجماعية، وبهذا فهو هنا (المنطق العملي) لا يعني ذلك المنطق الذي دُونت أصوله، ووضعت قواعده مع ظهور المفكر اليوناني «أرسطو»، وإنما هو ذلك المنطق الذي يُعنى بشكل كبير بالتجسيد والتطبيق وبكيفية ارتباط العمل بوسائله، وغاياته، ومنه بمحاولة استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة واقعيا (48).

وبهذا تتحقق وتتجسد الفعالية في كل نوع من أنواع النشاط الإنساني الذي يقوم - دائما - على أساس الحركة.

وما التاريخ الإنساني نفسه - في نظر «مالك بن نبي» - "إلا قائمة إحصائية لعدد معين من الحركات والأفكار، ولذلك فإنه من البديهي أن المجتمع الذي يسجل يوميا أكبر عدد ممكن من الحركات والأفكار، يُكون لنفسه محصولا اجتماعيا أكبر (بمعنى فعالية أكبر). (فمثلا) الفرد الذي يسير عشر خطوات، ويحرك يده عشر مرات (بطريقة منظمة وهادفة) يقدم للمجتمع من الثمرات (أو الإنجازات) أكثر مما يقدمه فرد يسير خطوة واحدة، ويحرك يده مرة واحدة" (49).

وهكذا فإنه بإضافة هذا المبدأ الثالث (المنطق العملي) إلى مفهوم الثقافة يكون قد تم تكوين شرط هام آخر من شروط الفعالية في سلوك

الفرد، وأسلوب الحياة في المجتمع. ولا شك في أن هذا المبدأ سيزيد في توضيح الفرق الجوهرى بين الثقافة والعلم، ومن ثمة بين الفرد المثقف والفرد العالم أو المتعلم (50).

وما تنبغى الإشارة إليه في هذا الصدد أيضا هو أن «مالك بن نبي» يعتبر أن الفرد المسلم اليوم لا ينقصه، في الأصل، منطق الفكرة، وإنما ينقصه منطق العمل والحركة. فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا خالٍ من ذلك الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها...

إن هذا الكلام ينسحب على المجتمع الإسلامى عموما، بحيث لا يصح القول عن هذا الأخير أنه يعيش طبقا لمبادئ القرآن الكريم في كل أحواله، وإنما هو يتكلم تبعا لمبادئ القرآن الكريم. ذلك لأن المنطق العملي في سلوكه الإسلامى غير موجود. وهو ما يفسر - إلى جانب عوامل أخرى - لا فعاليته (51).

(د) - التوجيه الفنى :

يشكل هذا المبدأ أساسا رابعا هاما تقوم عليه الثقافة في المجتمع. وهو يتصل بمختلف النشاطات التي يمارسها الأفراد (الفنون، الحرف، العلوم.../ الصناعة بتعبير «ابن خلدون»). ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد هو أن التوجيه الفنى يمثل بالنسبة للفرد (لوحده) وسيلة

لكسب عيشه وربما لبناء مجده، بينما يمثل بالنسبة للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه.

وفي هذا الإطار، يرى «مالك بن نبي» أنه يتوجب، في كل توجيه فني لعمل الفرد، أن تؤخذ بعين الاعتبار العلاقة الترابطية المزدوجة بين المصلحة الخاصة (الفردية) والمصلحة العامة، لأن في ذلك تحقيق للفعالية التي يحتاج إليها المجتمع الذي يهدف إلى بناء حضارة متوازنة ولها أساس ثقافي قوي. وعلى المجتمعات التي تعاني من مشكلة التوجيه هذه - مثل المجتمع الجزائري- أن تنشئ مجالس حقيقية للتوجيه الفني لتحل هذه المشكلة نظريا وعمليا، تبعا لحاجات ومتطلبات كل مجتمع (52). وهكذا إذا، فالثقافة التي يتم تحديدها وتصورها في صيغة بيداغوجية هي كل هذه العناصر الأربعة- (المبدأ الأخلاقي، المبدأ الجمالي، المنطق العملي، التوجيه الفني)- التي تشكل فيما بينها تركيبا متألفا يسمح بجمع شروط الفعالية التي - هي كما تم توضيحه- الشيء الذي يريد «مالك بن نبي» التأكيد عليه من خلال كلمة «ثقافة».

- رابعا: توجيه العمل:

يؤكد «مالك بن نبي» في هذا السياق بأنه قد يبدو غريبا للبعض أن يتم الحديث عن شيء يسمى «توجيه العمل» يكاد يكون غير موجود في واقع مجتمع كالمجتمع الإسلامي حاليا، ذلك لأن الوجه المألوف لكل ما

هو متعطّل وغير موجود في واقع المجتمع، أصبح يشكل نقطة استفهام مقلقة بالنسبة لهم.

ولكن ألم يتم الحديث عن توجيه الثقافة ؟ فهل هناك ثقافة حقيقية في الجزائر مثلا (بل وفي العديد من بلدان العالم الإسلامي) حتى يتم الحديث عن توجيهها؟. ومع ذلك، فمن المهم - حسب رأيه- الحديث عن شيء لا وجود له، لأن في ذلك محاولة لخلق وإسهام في تكوينه. و" نقطة الاستفهام هذه لا تسد الطريق إلا على أولئك الذين ينظرون إلى الأشياء في وضعها لا في مصيرها " (53).

هذا ويشير «مالك بن نبي» أيضا - فضلا عن كل ذلك- بأن العمل وحده هو المصدر الذي يُخط من خلاله مصير الأشياء، لأنه لا يتولد، أساسا، من الخطب وإنما من حركة العناصر الأساسية الدائمة (الإنسان، التراب والوقت).

يظهر ذلك جليا - على سبيل المثال- في محاولة المسلمين الأوائل اللجوء، في البداية، بصورة فعلية إلى مباشرة إنجاز أول مسجد لهم بالمدينة شكل أول ساحة للعمل - على الرغم من بساطتها التي تبدو للبعض- كانت منطلقا للحضارة الإسلامية.

إنهم بهذه الطريقة استطاعوا أن يتحكموا في مجرى التاريخ. ويستنتج من ذلك أنه في المجتمع، الذي هو في حالة نشوء، يتعيّن النظر إلى العمل من الجانب التربوي وليس من جانب الربح أو الكسب.

" وبصفة عامة فإن توجيه العمل (في مرحلة التكوين الاجتماعي) يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد (بما في ذلك) جهد الراعي، صاحب الحرفة، التاجر، الطالب، العالم، المرأة، المثقف والفلاح...، لكي يصنع كل منهم، في كل يوم، لبنة جديدة في البناء " (54) (*****). ويجب " أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا، ثم وسيلة خاصة لكسب العيش بعد ذلك " (55).

بمعنى أنه على المجتمع الذي يسعى إلى بناء حضارة أن يهتم في المقام الأول بعملية التوجيه العملي عن طريق توعية أفراده بأن العمل شرط أساس وعملية ضرورية للوجود ولتحقيق التقدم، ثم بعد ذلك يهتم بالتوجيه في العمل من أجل الكسب.

خامسا: توجيه رأس المال:

يشير «مالك بن نبي» في هذا الصدد إلى ضرورة التمييز بين مفهومي «الثروة» و«رأس المال». فالثروة يمكن فهمها انطلاقا من المركز الاجتماعي لصاحبها (فلاح، صاحب ماشية أو صاحب ضيعة ...) أو حتى من خلال استعمال صاحبها لها (بنفسه) في إطار ضيق يسمح له بتلبية حاجاته فقط، وبهذا فهي تظهر - في كلتا الحالتين - معرفة بطابع مكاسب الفرد غير المتحركة وغير الداخلة في الدورة الاقتصادية.

أما «رأس المال» فهو في جوهره المال المتحرك والمجرد الذي - كما هو معروف عند الاقتصاديين - ينفصل - على عكس الثروة

(*****). - اسما عن صاحبه(*****). " ويتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، وأقصى من المقدار الذي تحدده حاجاته (الخاصة) " (56).

يمكن ملاحظة ذلك، بصفة عامة، حتى في المجتمع الغربي (أوروبا)، حيث أن تكوين «رأس المال» به بدأ مع ظهور الصناعة، وذلك انطلاقا أولا من المواد الأولية المحلية والمستوردة، ثم المصانع كقضاءات تتحول فيها تلك المواد إلى سلع ومنتجات، ثم الأسواق - كمجالات للاستهلاك- تصرف وتباع فيها تلك السلع. كل ذلك قد جعل المال يتسع أكثر من حيث توظيفه، ليتجاوز هكذا نطاق استعمال الفرد الخاص ومحيطه، إلى نطاق آخر أوسع يتمثل في محيط ينتقل فيه (هذا المال) من بلد إلى آخر مشكلا بذلك لشبكة من العلاقات الاقتصادية بين مختلف البلدان، ومتخذا شكل قوة مالية مجردة يطلق عليها «رأس المال».

والواضح هنا أن انتقال «رأس المال» من بلد إلى آخر، ينتج عنه خلق لـ«العمل» بما يتطلب هذا الأخير من تعبئة للأيدي والعقول (*****).

على أنه تجدر الإشارة أيضا في هذا الصدد إلى أن توجيهه (رأس المال) وهو لا يزال في طور التكوين (مثل في الجزائر أو في غيرها من بلدان العالم الإسلامي، بل وفي كل بلد يعيش أزمة حركة ونمو بصفة عامة) يكتسي أهمية اجتماعية كبرى بالنسبة للإنسان. ذلك لأنه لا

يصبح هنا يتصل أولا بالكم وإنما بالكيف، لأن الانشغال الأساس في هذا الطور / هذه المرحلة يكون منصبا، بالدرجة الأولى، على كل قطعة مالية متحركة، متنقلة، تخلق معها العمل والنشاط للإنسان، أما الكم فيأتي في الدرجة الثانية، بعدما يصل المجتمع إلى مرحلة معينة من التطور الحضاري.

وعليه فإن توجيه الإنسان لرأس المال من أجل بناء حضارة ما، لا يتطلب دائما، وبالضرورة - حسب رأي «مالك بن نبي» - كمية كبيرة و«مكثفة» من الأموال، وإنما يتطلب قبل كل شيء كيفية تسيير ناجحة وعقلانية لما هو موجود بحوزة المجتمع من أموال مهما كانت كميتها قليلة، وهذا بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك يخلق معه العمل والنشاط، ويتوافر فيه - بخلاف ما وقع في أوروبا من اضطرابات اجتماعية ناتجة عن تهيمش طبقة لأخرى - إسهام جميع أفراد المجتمع.

وهكذا فإنه بهذا التوجيه الذي يسير بصورة مترابطة ومتناسقة مع توجيه الثقافة وتوجيه العمل، يمكن للإنسان - في نظر «مالك بن نبي» - أن يحقق الشروط الأساسية والضرورية لبناء حضارة متجددة تطابق إطاره الخاص (57).

خاتمة:

لقد كانت هذه المساهمة العلمية محاولة للوقوف على مكانه الإنسان في عملية التجديد الحضاري للعالم الإسلامي عند «مالك بن نبي»، بحسب ما يتضح من مجمل تقديمات المعرفية والمنهجية في هذا السياق. ولقد اتضح هنا انشغاله بقضية الإنسان، لا من حيث هو كائن بيولوجي، وإنما - بالأساس - من حيث هو كائن اجتماعي، أخلاقي، ثقافي، مفكر ومبدع؛ أي من حيث تحديد الشروط الضرورية لانسجامة مع حركة التاريخ.

فهو لم يطرح هذه القضية بصورة تجريدية في شكل اعتبار أن السؤال المركزي يتمثل في: ما الإنسان؟ وإنما كان يبحث في إمكانات الإنسان وقدراته؛ أي في الإنسان - بالمفهوم الفردي والجماعي - باعتباره عنصرا محوريا في المعادلة الحضارية وكائنا فاعلا مهما في تركيب التاريخ الإنساني والتجديد الحضاري، بفضل قواه الإنشائية الإبداعية في مختلف مجالات الحياة.

ومن المهم اعتبار قضيته الأساسية اليوم - لاسيما في العديد من مجتمعات العالم الإسلامي التي تعاني أزمة حركة ونمو على مستوى مختلف الخطوط التنموية (الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية...) - منوطة، من ناحية واقعية، بتوجيهه في نواح ثلاث (توجيه الثقافة / توجيه العمل / توجيه رأس المال)، وهذا في إطار تخطيط سليم وفعال، قادر على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع مثل

المجتمع الإسلامي أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد؛ هو وضع النهضة الشاملة والتجديد الحضاري.

- الهوامش:

(*)- مالك بن نبي: هو مفكر إسلامي عالمي، ولد سنة 1905 في مدينة قسنطينة بالجزائر، حيث تابع فيها دروسه الأولى، ثم انتقل بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى باريس (فرنسا) حيث تخرج سنة 1930 كمهندس كهربائي. ولقد اتجه اهتمامه منذ البداية نحو تحليل الأحداث و الأوضاع المحلية والعالمية التي كانت تحيط به. وقد أعطته، في هذا الإطار، ثقافته الواسعة والممنهجة قدرة على إبراز مشكلات العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة بالأساس. فوضع بذلك مؤلفاته تحت عنوان " مشكلات الحضارة ". في باريس أصدر باللغة الفرنسية: الظاهرة القرآنية، لبيك، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، الفكرة الإفريقية الآسيوية؛ بمناسبة انعقاد " مؤتمر باندونج ". وفي سنة 1956 سافر إلى القاهرة حيث طبعت له وزارة الإعلام هناك باللغة الفرنسية كتابه الموسوم بـ " الفكرة الإفريقية الآسيوية ".

عمد في القاهرة، بعد إتصاله بالعديد من الطلبة إلى ترجمة مؤلفاته الأولى إلى العربية، ثم أصدر بقية مؤلفاته باللغة العربية بعد ترجمة بعضها وكتابة بعضها الآخر باللغة العربية مباشرة.

انتقل إلى الجزائر سنة 1963 حيث عين مديرا للتعليم العالي، وأصدر فيها المؤلفات التالية: آفاق جزائرية، يوميات شاهد للقرن، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد. في سنة 1967 استقال من منصبه ليتفرغ بذلك للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية. توفي بتاريخ 1973/10/31 في الجزائر.

- لمزيد من التفاصيل أنظر:

- مالك، بن نبي: **مذكرات شاهد للقرن؛ القسم الأول: الطفل**، ترجمة (عبد المجيد النعني)، والقسم الثاني: الطالب، ط 2، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)]، 1984.

- عمار، طالبي: «مالك بن نبي ومشكلة الحضارة»، **مجلة الثقافة**، الصادرة بالجزائر عن وزارة الإعلام والثقافة، العدد 18، مرجع سابق، ص ص 12 - 13.

(1)- مالك بن نبي: **تأملات**. ترجمة عمر كامل مسقاوي، دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1986، ص 199.

(2) MALEK, Bennabi : **Les conditions de la renaissance (problème - d'une civilisation).**

TIPAZA, société d'édition et de communication,
1992, p 32.

(3)- أنظر في الصدد: مؤلف « مالك بن نبي » (شروط النهضة) المترجم إلى العربية والذي وردت فيه هذه الفكرة (المثال) دون التمكن من الوقوف عليها - مثلها مثل أفكار أخرى- في المؤلف نفسه الأصلي المكتوب بالفرنسية:

- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط 4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)]، 1984، ص 49.

(**) – وهذا التحليل يصدق على كل منتج حضاري آخر.

(4)- أنظر في هذا الصدد: - مالك بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق، ص ص 169 – 170.

- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط 4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 50.

(***) – تجدر الإشارة هنا إلى أن « مالك بن نبي » اعتبر كلا من الرجل والمرأة قطبي الإنسانية، فلا معنى لأحدهما من دون الآخر. كما أنه لم يبحث القضايا المختلفة المتعلقة بوضع المرأة ومشكلاتها في

المجتمع بعيدا عن مشكلة الرجل، فهما يشكلان، في حقيقتهما، مشكلة واحدة هي مشكلة الفرد في المجتمع.

[- لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد:

[- MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation).

Op. Cit, p 53 .

(5)- مالك، بن نبي: **مشكلة الثقافة**. ط4 (طبعة منقحة ومزودة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)]، 1984، ص 100.

(6)-MALEK, Bennabi Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation).Op. Cit. PP 31-32.

(****) – تجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن « مالك بن نبي » يرى بأن لظاهرة الاستعمار – أو الاستعمار بتعبير المفكر الإسلامي الجزائري « مولود قاسم نايت بلقاسم » مظهرين اثنين:

1- المظهر الأول: هو الغزو الاستعماري.

2- المظهر الثاني: هو « القابلية للاستعمار La

«colonisabilité

فالغزو الاستعماري - وفق الحقل الدلالي الخاص به - يتميز بتأثيره المباشر على الفرد أو المجتمع من الخارج، بحيث يجعل منه كائنا منتقص القيمة ومغلوبا على أمره، تسميه الإدارة الاستعمارية بـ « الأهلي Indigène ».

وقد يؤثر هذا المظهر من مظاهر الاستعمار في حياة الفرد في مختلف الأطوار، بحيث يؤثر فيه وهو طفل عندما لا يزوده المجتمع المغزو أو المسلوب الحرية بما يقوى جسمه وينمي فكره بتوفير المدرسة له مثلا، أو حتى توجيهها معينا (تكوينا). هذا، طبعاً، إن وجد هذا الطفل نفسه في أحضان أسرة تحاول أن تأخذ بيده.

أما إذا كان قد فقد منذ الصغر أسرته، ومن خلال ذلك مساعدتها له (معنويا وماديا)، فالأمر، في هذه الحالة، يغدو أكثر تعقيدا. إذ سرعان ما يلجأ، وهو صغير جدا، إلى الشارع ليعمل كماسح أحذية أو كمتسول. وإذا ما سعه الحظ وهيئت له الأسباب والظروف لأن يجد مقعدا في مدرسة ما، فإنه لا ينجو، في أغلب الأحيان، من سوء المعاملة والتصرف من قبل المشرفين على هذه المدرسة، لأن القانون الذي يُطبق عليه هو قانون « الأهالي les indigènes ».

والأمر يستمر معه حتى في مرحلة الكبر، إذ في هذه المرحلة يجد أمامه أيضا عدة عوائق تمنعه من إقامة حياته، فكل الأعمال التي تقوم عليها حياته الاجتماعية (الشراء، البيع، السفر، الكلام، الكتابة ...)

مسلوبة منه، ولا يمكنه الظفر / التمتع بها إلا بعد جهود كبيرة وبالقدر الذي يحدده المستعمر له، لأن هناك شبكة دقيقة من الاحتراقات في شكل إجراءات يتخذها المستعمر « Le colonisateur » من أجل سلب كل وسيلة تجعله يقيم حياته ويحقق أهدافه.

{- لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد:

- MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). Op. Cit, p p 51-57.

هذا عن المظهر الأول من مظاهر الاستعمار وهو « الغزو . الاستعماري »، أما عن المظهر الثاني منه وهو « القابلية للاستعمار La colonisabilité » - كظاهرة عامة لصيقة بما كان يعرف في السابق بـ« العالم الثالث » كله - فيعد في نظر « مالك بن نبي » أهم - من حيث الاهتمام بالدراسة - من الأول وأخطر، لأنه ينبعث أصلا من داخل الفرد الذي يصبح، في هذه الحالة، يقبل على نفسه تلك الصبغة (الاستعمار)، ويسير في تلك الحدود أو الأطر التي رسمها له المستعمر، وحدد له فيها حركاته وأفكاره، وبصفة عامة طريقة حياته. فيظهر هكذا متقبلا لاسم « الأهلي L'indigène »، ولكل ما يرمي إليه المستعمر من استغلال وتقليل لقيمته من كل ناحية، حتى من ناحية اسمه.

ولكي يتسنى فهم المسألة أكثر بمثال توضيحي، يمثل في حد ذاته درسا مفيدا بالنسبة للذين يعيشون في حالة « قابلية للاستعمار » يمكن تشريح وتحليل ما وقع بالنسبة للطائفة اليهودية في الجزائر أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث كانت تعيش هذه الأخيرة - عقب سقوط الجمهورية الثالثة سنة 1940 وقيام حكومة فرنسية تساويرة طواعية أو كرها الموقف الذي تبناه رئيس « ألمانيا » آنذاك « أدولف هتلر ADOLPHE (H) » والمضاد لليهود - أوقاتا عصيبة وشديدة نتيجة للإجراءات الاستثنائية القاسية التي كانت تطبقها عليها الدوائر الحكومية في كل المجالات: أبناؤهم أقصوا من المدارس والثانويات، نشاطاتهم الاقتصادية عرقلت بمختلف القوانين وقلصت إلى حدود جد ضيقة.

وكانوا في النهاية، أمام أمرين لا ثالث لهما؛ إما الاستسلام والقبول بالوضع الصعب القائم، أو السعي لفك الحصار المفروض عليهم. فكانوا أن نزعوا إلى التكيف مع الوسط الذي يعيشون فيه بكل معطياته، وذلك باتباع طريقة خاصة تحفظ لهم وجودهم الخاص والمستقل، وهذا من غير التقيد بقوانين التكيف الأخرى المعروفة عند علماء الاجتماع بالميل إلى التشبه والاقتداء والانقياد.

فلقد سعوا إلى تكوين مدرسة سرية في كل بيت من بيوتهم، يدرس فيها أساتذة متطوعون - منهم حتى أطباء، مهندسون ومحامون - خلال ساعات معينة.

بالإضافة إلى ذلك، فإنهم عمروا معابدهم أكثر من ذي قبل، واستمروا في نشاطاتهم الاقتصادية (خاصة في مجال التجارة) بتنظيم دقيق وحرص شديد نظرا للتجانس الاجتماعي المفروض

(الجماعة للفرد والفرد للجماعة) الذي كان سائدا بينهم. وهكذا، لما انتهت الحرب وأسفرت عن نتيجتها المعلومة ورفعت الإجراءات الاستثنائية التي اتخذتها حكومة « المارشال بيتان » ضد الأطفال اليهود والطائفة اليهودية في الجزائر بصفة عامة، خرج هؤلاء جميعا منتصرين ومجتازين لساعات الخطر بكل إرادة، على الرغم من المعوقات الخارجية التي كانت تقف أمامهم، والتي طالت حياتهم في جزئياتها.

ذلك لأن أنفسهم لم تكن معلولة، ولم يكن هناك أي معوق داخلي يمنعهم من التقدم ويحط، في الأصل، من قيمة أنفسهم بأنفسهم. والواقع أن هذا النجاح الذي حققه الفرد اليهودي ليمثل المثل الحقيقي لانتصار الفرد على الظروف الصعبة والمعوقات الخارجية الناجمة عن البيئة التي يعيش فيها. فهو درس يفيد في معرفة كيف أن الأطفال يتعلمون بدون مدارس مفتوحة، وكيف أن حياة فرد / طائفة / جماعة تنشط تحت الضغط والمراقبة.

إنه، في وجه من الوجوه، درس في «الفعالية» المفقودة، على سبيل المثال، في بعض المواقف السياسية في الجزائر، أثناء فترة الاستعمار، عندما كان جيل من " المتقنين السياسيين " يقف من قضية مهمة بالنسبة للمجتمع الجزائري، وهي قضية « الأمية »، موقفا مغايرا للموقف الذي اتخذته الطائفة اليهودية، أثناء الحرب العالمية الثانية، بشأن القضية ذاتها.

إذ لجأ هؤلاء إلى كتابة العديد من المقالات التي تحاول أن توضح - عن طريق أمثلة مدعمة بالأرقام - خطورة هذه الظاهرة على مستقبل الفرد الجزائري والمجتمع الجزائري على حد سواء، وهذا بأسلوب الخطابات المفعمة بالحماس والمتفدة بالوطنية والتي تعارض الاستعمار. ذلك لأنه « يجرم » في حق المجتمع الجزائري، حين يتركه إلى جهله. وهكذا استمر هؤلاء في كتابة مقالاتهم والسنوات تمر، الواحدة تلو الأخرى، والقضية لم تجد في مجهوداتهم حل لها، لانعدام الفعالية التي تمت الإشارة إليها سابقا.

وهكذا إذا، فإن الأمر هنا منوط أساسا - حسب « مالك بن نبي » - بكيفية التخلص من اللافعالية ومما يستغله الاستعمار في الأنفس من استعدادات لتحقيق أغراضه، سواء من حيث يشعر الفرد أو لا يشعر.

فالاستعمار، مهما كان، له القدرة أيضا على تسخير بعض الأفواه والأقلام لأغراضه، وهذا طبعا بعلمه من جهة، وجهل البعض من أفراد المجتمع المستعمر من جهة أخرى.

إنه يعمل على الاستفادة من نقائص المجتمع الذي هو خاضع لسيطرته، وخاصة عندما تحتم عليه الظروف أن يختفي لكي يحدث تأثيره الكامل؛ مثلما حدث، على سبيل المثال لا الحصر، مع كتابه (مالك بن نبي) المعنون بـ «شروط النهضة» في طبعته الأولى بالفرنسية، حيث أن المستعمر لم يفعل، إزاءه - كما رأى ذلك «بن نبي» - سوى أن وضع إصبعه على ما يعرف بـ «الزر الخفي» لتقع الجريدة الناطقة باسم «جمعية العلماء المسلمين» في الجزائر والمعونة باسم «البصائر» فيما كان يخطط له المستعمر، فخصصت مقالين لتقديم هذا الكتاب للمجتمع الجزائري، على أساس أنه يمثل خلاصة مقالات نشرت في جريدة «العالم Le Monde» الباريسية الموالية للحكومة الفرنسية بقلم مراسلها (والمقصود هنا «مالك بن نبي» في القاهرة ...

إن مثل هذا التقديم، وبهذه الطريقة بالذات، يثبت - بصورة أو بأخرى حسب «مالك بن نبي» - عجز التصورات العقلية لبعض أفراد المجتمع المستعمر عن إدراك حقائق الأمور وعن معرفة الرهانات الأساسية التي يسعى المستعمر لكسبها في المجتمع، عن طريق توجيه

بعض الطاقات الاجتماعية التي لم تتخلص بعد من معامل " Le Coefficient " « القابلية للاستعمار »؛ أي من الضعف الذي هو بداخلها، والذي يجعلها تقبل، آليا، كل شيء وتسير في تلك الحدود أو الأطر الضيقة التي رسمها لها المستعمر، وحدد لها فيها حركاتها وأفكارها وحياتها بصفة عامة.

{ - لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد:

- مؤلف «مالك بن نبي» المعنون بـ «شروط النهضة» في طبعته الفرنسية (الأولى) وطبعته العربية (المنقحة والمزيدة).

-MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). Op. Cit, p p 76-78.

- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط 4 (طبعة منقحة ومزيدة)،

ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص ص. 156-161

- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي،

مصدر سابق، ص ص 140 – 141.

- مالك، بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. ط 3،

الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)]،

1988، ص ص 14 – 36.

- NOURREDINE, Khendoudi : La théorie de la
Alger, Editions El- civilisation chez MALEK.

54-58. borhane Et Tougui, 1993, pp

وبهذا فإن مفهوم «القابلية للاستعمار» - الذي ابتكره واستخدمه للمرة الأولى «مالك بن نبي» في كتابه « شروط النهضة » الصادر عام 1948 - يشير إلى ضعف حضاري ناجم عن الظروف الاجتماعية والعوامل النفسية التي تحيط بالفرد / المجتمع، والتي تجعله يفكر ويتصرف بطريقة تساعد الاستعمار - كانعكاس لـ «الأنا» خارج إطاره؛ أي كمحاولة للتوسع على حساب وجود آخر- على التسلط عليه واستغلال ثرواته.

يبقى أنه هناك مفكرون آخرون توصلوا إلى النتائج نفسها في أبحاثهم التي حاولت أن تعالج الأسباب التي تجعل مجتمعات ما تنعثر في مسيرتها التاريخية الحضارية.

ف« أرنولد توينبي TOYNBEE ARNOLD » نفسه أكد في كتابه « دراسة في التاريخ A study of History » على أن سبب الانحطاط لا ينبغي إرجاعه بصورة تلقائية ومباشرة إلى التطاول الأجنبي على حياة مجتمع معين. ذلك لأن المستعمر لا يُقبل على مثل هذا الأمر إلا إذا كان هذا المجتمع ذاته مقدما على انتحار محقق (انهيار ذاتي).

{ - أنظر في هذا الصدد المؤلف التالي لـ « أرنولد توينبي

:« ARNOLD.TOYNBEE

ARNOLD. J, Toynbée : A Study of History.
(Abridgement by D.C .Somervell), London,
Oxford university press, 1962.

والأمر كذلك بالنسبة لـ« ر. غروسيه (R) GROUSSET »
الذي أكد هو أيضا في كتابه«حصول التاريخ Bilan De L'histoire
« بأن انهيار الحضارة من الخارج لا يكون إلا بعدما تتآكل هذه الأخيرة
نفسها في البداية من الداخل. فالإمبراطورية؛ أية إمبراطورية كانت، لا
تقهر ولا تسقط ما لم تكن قبل كل شيء قد أخذت طريقها نحو الانتحار.

- {- أنظر في هذا الصدد:

MALEK, Bennabi :Le grands Thèmes. Alger,

Copyright omar Benaïssa , 1976. p 12 {

إن مثل هذه الآراء التي قدمها هذان المفكران وغيرهما تقترب، دون
شك، من التفسير الذي قدمه « مالك بن نبي » بشأن الظاهرة المعبر
عنها بـ« القابلية للاستعمار La colonisabilité ».

فهو يؤكد في هذا الصدد بأنه ينبغي إقامة تفرقة واضحة بين مجتمع
مغزو ومجتمع مستعمر. ذلك لأنه في الحالة الأولى يكون المجتمع
مغلوبا على أمره، لكن دون أن تتولد بداخله حالة من الانهيار الذاتي ()
الاستسلام / القابلية للاستعمار)، أما في الحالة الثانية فإن جميع

الظروف (الاجتماعية والنفسية ...) تكون دالة على قابلية المجتمع للاستعمار، ليتحول هكذا الاحتلال الأجنبي - في هذه الحالة بالذات - إلى استعمار حقيقي، ليس كنتيجة للصدفة وإنما كنتيجة حتمية لتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية وانحلال الإرادة الحضارية للمجتمع، الذي لا يصبح يهيمه هنا عالم الأفكار - ما عدا طبعاً ما يعرف بـ « الأفكار الجاهزة » نظراً لما في نفسيات المجتمعات من ميل طبيعي نحو السهولة وكل ما هو ميسر - بقدر ما يجلبه عالم الأشياء.

" فروما (مثلاً) لم تستعمر اليونان؛ ولكنها غزتها، وإنجلترا التي استعمرت أربع مائة (400) مليون من الهنود إذ كانت لديهم القابلية للاستعمار، لم تستعمر أيرلندا الخاضعة دونما استسلام. وفي مقابل ذلك « اليمن » تلك التي لم تفقد استقلالها لحظة من الزمن، لم تستند من ذلك الاستقلال في شيء، ذلك لأنها قابلة للاستعمار؛ أي عاجزة عن القيام بأي جهد اجتماعي، ومع ذلك فإن هذا البلد لا يدين باستقلاله إلا لمحض المصادفة. حيث وجدت ملابسات (ظروف) دولية مواتية حفظت استقلاله ... وعليه - يضيف « مالك بن نبي » - فإن المشكلة الرئيسية هي أنه لكي يتم التخلص من الاستعمار يجب التخلص من القابلية للاستعمار ...". ذلك لأن الأول هو محصلة منطقية للثانية.

{ - أنظر في هذا الصدد:

- MALEK, Bennabi : Vocation de l'islam. Tipaza, Société d'édition et de communication, 1991, pp. 65 et 75.

على أنه ينبغي الإشارة أيضا في هذا الصدد إلى أن الاستعمار عندما يتمكن من احتلال مجتمع معين، فإنه يدخل في حياته - ويظهر ذلك من خلال تقصي الحركة الاستعمارية من أصولها لا كرجال سياسة وإنما كمختصين في حقل علم الاجتماع - بصفته عاملا مناقضا (أي تحديا بتعبير « أرنولد توينبي ») يساعده - على الرغم من أنه لا يريد له ذلك - على التغلب على قابليته له.

فهو من جانب معين يعتبر إيجابي " حين يحرر الطاقات التي طال عليها زمن الخمود (زمن القابلية للاستعمار)، على الرغم من أنه يعد من جانب آخر عاملا سلبيا، حين يتجه إلى تحطيم هذه الطاقات، بتطبيقه على الفرد (قانون) « المعامل الاستعماري Le Coefficient Colonisateur ». وأنه لوجود - في هذا الصدد « حسب مالك بن نبي » - واقع ذو دلالة؛ فالتاريخ لم يسجل إطلاقا استمرار الواقع الاستعماري، إذ أن قوى الإنسان الجوهريّة تتغلب أخيرا على جميع (ضروب التناقض). وليس معنى هذا أن المستعمر « Le colonisateur » يحرك (المجتمعات المستعمرة Les Sociétés colonisées)، وإنما يحرك ليشلها ... ولكنه في نهاية

الأمر يغير ظروف حياة المستعمر « Le Colonisé » من جذورها، فيساعده بذلك على تغيير نفسه"، أي على التخلص من عقدة النقص التي هي فيه - والتي عبر عنها « ابن خلدون » بقوله أن " المغلوب مولع دائماً بمحاكاة الغالب والافتداء به " سواء في شعاره أو زيه أو أفكاره أو نحلته أو سائر أحواله ... - ومن ثمة تغيير ما بحوله

{- أنظر في هذا الصدد:

MALEK, Bennabi: Vocation de l'Islam. Op. Ci t, pp 65-66. {-

(7)- Ibid.: p32

(8)- Ibid.: p 32.

(9)- Ibid

(10)- Ibid.: p 33

(11) - Ibid.: p 33

(12)- Ibid. : p 33

(13)- Ibid. : p 33

(14)- Ibid. : p 34.

(16)-Ibid. : p 35

(17)- Ibid. : p 35

(18) -Ibid. : p 35

(19)- Ibid. : p 35

(20)- Ibid : p 36

(*****)- يرادف مصطلح « النهضة » عند مالك بن نبي مصطلح « الحركة »، فهي عنده سعي متواصل نحو غاية واحدة ووحيدة هي «الحضارة».

(21)- أنظر في هذا الصدد : - مالك، بن نبي : مشكلة الثقافة. ط 4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق ، ص ص 29 ، 72 -73.

- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط 4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص88.

(22)- أنظر في هذا الصدد : - مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة). ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 73.

- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 88.

(23)- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر

سابق، ص 143.

(*****)- ومن هنا فإن المدرسة لا توفر وحدها للفرد الصفات المحددة

للمحصول الاجتماعي أو الفعالية إلا ضمن إطار عام يتعلق بوسطه

الثقافي الذي يتحرك فيه. كما أن السلبية أو عدم الفعالية الخاصة بالوسط

العام تنعكس في سلوك الفرد ونشاطاته. [- لمزيد من التفاصيل أنظر

في هذا الصدد: - مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4، (طبعة منقحة

ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 42 .

- MALEK, Bennabi : Les conditions de la

renaissance (problème civilisation). Op.

Cit, p 38.

وعلى كل فإن الثقافة، في النهاية، تمثل في نظر « مالك بن نبي»

«ظاهرة بيئية» قبل أن تكون «ظاهرة مدرسة».

[لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد :

- MALEK, Bennabi : Les grands thèmes. Op.

Cit., 1976, p 5.

(أو) - مالك، بن نبي: آفاق جزائرية (للحضارة - للثقافة - للمفهومية

.) ترجمة الطيب الشريف، الجزائر، مكتبة النهضة، 1991،

ص [127].

(*****)- ذلك لأن المجتمع زودهما بإطار ثقافي واحد يجعلهما- على الرغم من الاختلاف في الوظيفة...-يستسيغان، مثلا، قطعة مسرحية واحدة ويضحكان لنكتة واحدة...، بينما لا يؤثر ذلك في مشاعر الأفراد الآخرين ممن نشأوا في وسط ثقافي آخر مغاير.

(24)- أنظر في هذا الصدد: - مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4

(طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين مصدر سابق، ص ص 73-74.

- مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 89.

(25)- أنظر في هذا الصدد :

- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 74. - مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 89.

(*****)- وبالتالي فهي هنا تمثل: نظرية في المعرفة ومنهجها في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء.

(26)- أنظر في هذا الصدد :

- مالك، بن نبي: **مشكلة الثقافة**. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 74 .
- مالك، بن نبي: **شروط النهضة**. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق ص 89 .

(27)- أنظر في هذا الصدد :

- مالك، بن نبي: **مشكلة الثقافة**. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 74 .
- مالك، بن نبي: **شروط النهضة**. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 89 - 90 .

(28)- أنظر في هذا الصدد :

- مالك، بن نبي: **مشكلة الثقافة**. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة ص 75 . سابق، عبد الصبور شاهين، مصدر
- MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). OP. Cit., P 37.

(29)- أنظر في هذا الصدد :

- مالك، بن نبي: **مشكلة الثقافة**. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 76 -
- MALEK, Bennabi : **Les conditions de la renaissance** (problème d'une civilisation).

OP. Cit., P 38.

(30)- أنظر في هذا الصدد :

- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة

عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 77.

- MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème civilisation). OP. Cit., P D'une 38.

(*****)- إذ أن أي تفكير في مشكلة «الثقافة» هو في الأساس-

في نظر « مالك بن نبي»- تفكير في مشكلة « التربية » .

(31)- عمر كامل، مسقاوي: حول فكر مالك بن نبي. دمشق، دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع، 1985، ص ص 42 – 43، 55، و 75

(*****)- يقول « مالك بن نبي » في هذا الصدد - وهو

يستحضر من عالم الطب مفاهيمه المميزة - أنه يمكن توضيح وظيفة «

الثقافة » بشكل أكثر، وذلك بأن نمثل لها بوظيفة الدم،" فهو يتركب (

من نوعين) من الكريات : الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل

واحد من (البلازما)، ليغذي الجسد، و« الثقافة » هي ذلك الدم في

جسم المجتمع، يغذي حضارته، ويحمل أفكار (النخبة) كما يحمل

أفكار (العامة)، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من

الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأنواق المتناسبة " .

[- أنظر في هذا الصدد :

- MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). OP. Cit., P 39.

-مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة) ، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 78 [.

(32)- أنظر في هذا الصدد :

-MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). OP. Cit., P 39.

(33)- Ibid: P40.

(34)-القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع) : سورة الأنفال: الآية رقم 63.

(35)- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة) ، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق ص 79.

(36)- المصدر نفسه: ص 80 .

(37)- المصدر نفسه: ص ص 80 – 81 .

(38)- أنظر في هذا الصدد :

- المصدر نفسه : ص 81 .

-MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation). OP. Cit., P 41.

(39)- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر

سابق، ص ص 144 – 145 .

(*****)- من المهم الإشارة فيه هذا الصدد أيضا إلى أنه قد يكون من جهة أخرى للفرد « العالم » إمام بالمشكلة كفكرة، لكنه لا يجد في نفسه تلك الدوافع أو الحوافز التي تجعله يتصورها كعمل، بينما يرى الفرد « المثقف » نفسه مدفوعا بالمبدأ الأخلاقي، الذي يكون أساس ثقافته، إلى عملية هي في جوهرها، مجرد علم وعملية أخرى فيها تنفيذ وعمل.

{ - لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد :

- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر

سابق، ص 145.

(40)- المصدر نفسه : ص 146 .

(*****)- يظهر ذلك جليا مثلا من خلال عملية التجميل التي تقوم بها المرأة لنفسها. ف " المرأة في « قبائل الكونغو » حينما تشق شفثتها لتركب فيها قرطين من نحاس، إنما تقوم -كما يقال اليو - بعملية تجميل مطابقة لتطور وسطها، كما أن المرأة الصينية المعاصرة لـ (سونيات سن)، التي كانت في طفولتها تضع قدميها في قالب من حديد حتى لا يزيد طولها عن قدر معين، إنما هي في هذا تتجمل بمثل هذه العملية القاسية.] - لمزيد من التفاصيل أنظر في هذا الصدد : - مالك،

بن نبي: **شروط النهضة**. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص ص 106 - 107.]

(*****)- هذا الذوق الذي إذا تمكن من نفس الفرد يصبح دافعا دوما نحو الإتقان والتفنن في العمل، وتوخي ما هو حسن من العادات، والنفور من الفوضى واللا نظام وكل ما هو مستهجن. [- أنظر في هذا الصدد : - الطيب، برغوث: موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي. (سلسلة لبنات في البناء الحضاري)، الجزائر، دار الينابيع للنشر والإعلام، 1993، ص24.]

(41)- أنظر في الصدد :- مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة. ط4 (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص 82.

- MALEK, Bennabi: Les conditions de la renaissance (problème **d'une civilisation**). OP. Cit., P 42.
(42) - Ibid : pp 42-43

(43)- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق، ص 146.

(*****)- غير أنه إذا حدث وأن ظهرت المرأة المسلمة بلباس مخالف، فإن هذا لا يعني - في نظر « مالك بن نبي » - أن

المجتمع الإسلامي قد غير ملبسه، وإنما الأمر يتعلق هنا ببداية تغيير اتجاهه الأصيل، مستعيرا في ذلك طرائق ودوافع التعبير عن هذا الجمال من مجتمع آخر دون أن يشعر.

(44)- أنظر في هذا الصدد : - مالك، بن نبي: شروط النهضة. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص ص 108 - 110.

(45)- المصدر نفسه: ص 111.

(46)- المصدر نفسه: ص 111.

(47)- المصدر نفسه: ص 112.

(48)- أنظر في هذا الصدد :

MALEK, Bennabi : Les conditions de la -
civilisation). OP. Cit., renaissance (problème
D'une P 45.

- مالك، بن نبي: تأملات. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق،

ص 147.

(49)- المصدر نفسه: ص 146.

(50)- المصدر نفسه: ص 147.

(51) -MALEK ,Bennabi :Les conditions de la
renaissance

- (problème d'une civilisation).Op. Cit, pp. 45-46.

(52) لمزيد من هذه التفاصيل أنظر في هذا الصدد :

-Ibid. : p 44.

- MALEK, Bennabi : Les grands thèmes

.Op. Cit., p 61.

- مالك، بن نبي: **مشكلة الثقافة**. ط4، (طبعة منقحة ومزيدة)، ترجمة عبد الصبور شاهين، مصدر سابق، ص88.

- مالك، بن نبي: **تأملات**. ترجمة عمر كامل مسقاوي، مصدر سابق، ص 147.

(53)- MALEK ,Bennabi :Les conditions de la renaissance

(Problème d'une civilisation).Op. Cit, pp. 47.

(54)Ibid : p 48.

(*****) - يظهر ذلك - فيما يبدو للبعض - في أبسط الأمور، فإعطاء ثلاثة حروف من الأبجدية يعتبر عملا في نظر « مالك بن نبي »، وتقبل هذه الحروف يعتبر أيضا عملا، ورفع الأذى عن الطريق يعتبر عملا، وتقديم نصح بشأن النظافة والجمال - من دون أن يغضب الناصح حين لا يصغي لنصحه الطرف الآخر - يعتبر عملا، و غرس شجرة يعتبر هنا عملا، واستغلال أوقات الفراغ في مساعدة الآخرين يعتبر أيضا عملا، وهكذا ...

- أنظر في هذا الصدد:

- MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation).

OP. Cit., P 45.

Ibid : p 48. -(55)

(*****) - التي تعد شيئا بدائيا بسيطا - من الناحيتين الاقتصادية و القانونية - يستخدمه الفرد في ميدانه الخاص ولصالحه فقط مثل عقاره أو قطيعه ...

(*****) - بحيث لا يقال (رأس مال فلان) وإنما يقال (رأس مال) فقط.

Ibid : p 50 - (56)

(*****) - كما أنه يعزى إليه بروز ظاهرتين جديدتين في أوروبا الغربية هما:

1- طبقة العمال (البروليتاريا Prolétariat) التي ظهرت نتيجة للثورة الصناعية

2- الاستعمار الذي ظهر نتيجة للحاجة إلى التصدير

والاستيراد } - لمزيد من التفاصيل، أنظر في هذا الصدد:

-MALEK, Bennabi : Les conditions de la renaissance (problème d'une civilisation).

OP. Cit., P 52.

57 -Ibid.: p 51-53